الفصل الثانى

الشاعر فى إطار الوجود

المكان — الزمان

... مدخل إلى الشخصية الأدبية :

حتى نعيش أكثر مع الفنان

وحتى يمكننا أن نتعايش مع فنه ، وأدبه : ولكى يكون العطاء أكثر والرؤية واضحة المعالم ، وأسلوب التعامل مع الأبنية الفنية ، والأدبية — عمقا وسطحا — مؤسسا على وعى عميق ، واستنباط صحيح وحتى نفهم أكثر فأكثر . . . فإن علينا أن نقترب من العالم الخارجى الذى يمنح عبر الزمن القوى المؤثرة ، وأدوات التوصيل التى يمتلك بها الفنان والأديب ، القدرة على التواصل ، ومقدرة احتواء الأوان الفنى ، والأدبى .

والفنان — شاعراً، أو ناثراً ، أو تشكيلياً — ليس شخصية فنية وكفى . بل شخصية بشرية ، وإنسانية ، واجتماعية والفن فى أفقه الأوسع ما هو إلا العطاء المصفى لديناميكية هذه الشخصيات معا ، وما معطيات الشخصية الفنية سوى ما تختزنه من صور تجريدية ، وأفكار مبهمة ، ومعان غامضة تنتجها شخصيات التعامل الحياتى — الشخصية البشرية أو الاجتماعية — ومن هنا ينبغى التعرف على النشأة ، وما يعرف عن البيئة من مؤثرات داخلية ، وخارجية .

والناس — عادة — يختلفون فى أحاسيسهم ، ومشاعرهم ، وقابلياتهم اختلافا كبيراً ، والذى يبقى ، ويظل يعطى المعنى الذى ينداح فكرا وفنا وأدبا هو المؤثرات. تلك التى توثر وتشكل التفكير الإنسانى ومسلك الإنسان فى الحياة ،وتذوقه للأشياء، وموقفه من الآراء والأفكار الأخرى، وبهذا يكون العطاء الفنى ، والأدبى حسب — فى أكثر الأحايين — مزاج الفنان ، وطبيعته ، ومؤثرات بيئته ،والأدب — عادة — بوح ،واعتراف ، وشاهد على المخزون الوافر من الأسرار وخفايا النفوس وخباياها .

ولم يكن عبثا — ونظريات الأدب تتقدم ، والدرس فى التاريخ الأدبى

يتطور — أن يخرج « سانت بيف » بنظريته فى ربط الأديب بعماله الأدبى ، واكتشاف جوانب هذا العمل باكتشف الأديب نفسه والبحث عنه باعتباره إنسانا تنبغى دراسة أخلاقه ، والتعرف على أسراره ، ومكنوناته ، وخفايا أفكاره ولهذا استطاع « سانت بيف » أن يعلمنا قراءة الأسرار التى لايبوح بها الكاتب خلال السطور ، وفى مواضع لا يدور بخلد الكاتب أنه قد كشفها لنا . . » (١) .

والبيئة — عادة — بؤرة الحياة فى أبعادها الاجتماعية ، والاقتصادية والفكرية فى إطار الزمان وفاعليته (التـــاريخ) والمكان ، ومتغيراته (الجغرافيا) والأدب فى أرقى محصلته إنعكاس أمين ، وصادق لهذه البيئة فى كل جوانبها ، وتفسير يكتنفه الغموض ، أو يحيطه الوضـــوح لكل ما تمليه هذه الحياة .

والأديب فى أخلص نماذجه ، وأصدق مواقفه الأدبية قد يفجأ بإرادته فى الاختيار والكشف عما يدور فى أدبه من أفكار بالعجز وتفسير مصدرها ، وقد يعينه الناقد فى هذا . فالأديب والناقد كلاهما متعاون فى الكشف عما يدور فى الأدب من علاقات حميمة ، وصلات وثيقة بالحياة فى أوسع مجالاتها وأغزر معطياتها .

ونحن غالباً ما نقول إن الأدب بكل أشكاله ، والفن بكل ألوانه صياغة جديدة للمجتمع ، والحياة ، أو شكل من أشكال الحياة الحميلة والمؤثرة تأثيراً مباشراً ، أو صورة مركزة للحياة .

ومن هنا كان الاهتمام بالأدب ، والمجتمع ، أو الأدب وعلم الاجتماع الشىء الذى أنتج لنا دراسات حول « علم الاجتماع الأدبى » قامت بها :

---

(١) يراجع فى هذا : كتاب الدكتور محمد زغلول سلام ، النقد العربى الحديث — أصوله وقضاياه ، مناهجه ، ص ١٤٠ ، القاهرة ، سنة ١٩٦٤ .

« مدام دى ستال » (١٧٦٦ — ١٨١٧) مستغلة الأفكار الاجتماعية عند « ابن خلدون » : (٧٣٢ هـ — ٨٠٨ هـ) والمفكر الإيطالى « فيكو » (١٦٦٨ — ١٧٤٤) ونظريته : الدورة التاريخية ثم طورها « هيبوليت تين » (١٨٢٨ — ١٨٩٣) ليجعل منها أساسا ومدخلا لعلم الاجتماع الأدبى ، وليخضع الأدب والفن لطرائق البحث التى وظفت فى العلوم الطبيعية ».

أهتم « تين » — إذن — بالواقع الاجتماعى ، والعصر إطارا وإمتداداً لكنه أضاف بعداً آخر يتمثل فى : « الجنس » مكونا « العناصر الثلاثة » التى ينبغى تفهمها عند فهمنا للعمل الأدبى وصاحبه وهى : « البيئة » ، و « الجنس » ، و « التاريخ » .

ولم يكن منهج الدراسات الأدبية فى مصر بمعزل عن هذا النشاط الفكرى حول أطر دراسة الشخصية الأدبية ، حيث وجدنا أكثر من منهج يتصدى لمثل هذه الدراسات ، لكن أبرزها : « منهج العقاد النفسى » وفيه يرى العقاد أن البيئة (الزمان والمكان) لها أثر فى تكوين الشخصية الأدبية ، وينبغى أن تدرس لا لكى تعطينا تفسيراً للأدب ، ولكن لتعطينا تفسيراً للشخصية ، ومزاجها ، فهى تؤثر فى شخصية الشاعر ونفسيته لأنها من مكوناتها ، وقد أثرت فى الشعر المصرى بفضل تأثيرها هذا وساعدت على خلق لون معين من الشعر يتضح هذا بجلاء فى كتابه : « ساعات بين الكتب » وله كتاب عن أثر البيئة فى الشخصية وهو : « شعراء مصر ، وبيئاتهم فى الجيل الماضى » .

أما حينما يقدم تفسيراً للأدب ، والشعر بخاصة ، فإنه يرد إلى الأعماق النفسية ، ويقوم بتبريرات نفسية لكل ما يراه من شعر يحتاج إلى مثل هذه التبريرات ، ويتضح هذا فى كتاباته عن « أبى نواس » وكيف برر لمعطياته السلوكية بعقدة « النرجسية » التى فهمها على أنها « شذوذ يؤدى إلى

ضروب شتى من الشذوذ فى غرائز الجنس وبواعث الأخلاق »(١) .

وهكذا كانت دراسته « لجميل بثينة » و « عمر بن أبى ربيعة » حيث وصف الأول « بالمازوكية » و « الثانى بالفحولة الأدبية »(٢) .

لكنه فى كتابه : « ابن الرومى — حياته من شعره » لم يعتمد كثيراً على هذا المنهج النفسى ، اللهم إلا فى الفصل الثالث حيث حلل شخصية الشاعر وطابق بين « الأخبار » ، « وبين الشعر » وخرج بأنه كان مصابا بنوع من اختلال الأعصاب .

والمنهج الآخر الذى احتل مكانة ، ووزنا فى درس الشخصية الأدبية هو منهج الدكتور « طه حسين » القائم على ربط الشخصية ، وتفسيرها فى ضوء عـــوامل ثلاثة : « البيئة » و « الجنس » و « العصر » وقد استقرأ منهجه هذا من بيئات مختلفة : بيئة الأزهر التى أمدته بثقافات عربية أصيلة يحمل لروادها كل إكبار وإجلال أمثال : « أبو العلاء المعرى » و « المتنبى » و « الجاحظ » وغيرهم ، وبيئة أجنبية (فرنسية) أمدته بثقافة معاصرة وبمناهج حديثة لكبار المفكرين المعاصرين أمثال . « ديكارت » و « دارون » و « سانت بيف » و « تين » وغيرهم ، وتذوق الأدب الفرنسى شعره ، ونثره ، وأفاد من مناهجهم فى دراساته ، ونقده ، فطبق منهج « ديكارت » العقلى فى دراسته للشعر العربى بصورة جريئة لم تعهد من قبل . ولقد آمن « طه حسين » بحرية الأديب فى تناول موضوعه ، دون خضوع لأى قيد مهما كان القيد اجتماعيا كان أو سياسيا ، أو دينيا ، أو أخلاقيا وذلك لأن حرية الأديب تكفل له حرية الانطلاق..»

وكان لهذا المنهج العقلى الذى اختطه أداة لتخليص الأدب القديم من شوائبه .. »(٣) .

---

(١) عباس العقاد : أبو نواس الحسن بن هانى ، ص ٣٣ .

(٢) عباس العقاد : جميل بثينة — اقرأ العدد ١٣ ، ص ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ . وشاعر الغزل اقرأ العدد ٢ ، ص ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ .

(٣) د. محمد زغلول سلام : النقد العربى الحديث ، ص ٢٦٩ .

«فطه حسين» يرى ربط الفرد «بالبيئة» و «الجنس» و «العصر» فى إطار عقلى يفرضه المنطق العقلى، وتستوجبه الآفاق العليا لحركة التاريخ والنشاط الإنسانى دون رهبة، أو خوف، لأن الدارس إنما يخدم الحقائق الكونية، «وأنك إذا استطعت أن تعرف كل الدقائق المحيطة بهذه العوامل الثلاثة استطعت أن تضع للإنسانية من القوانين الثابتة ما لا سبيل إلى تبديله(١).

وهو عندما درس المتنبى توقف كثيراً حيث الحيـــاة السياسية، والاقتصادية، والعلمية وأبرز الجانب الاجتماعى المتصل «بشخص المتنبى وأسرته، ومكانه ومكان هذه الأسرة فى طبقته الاجتماعية(٢)».

فمنحه هذا التوقف، والاهتمام بالجانب الاجتماعى تفسيراً لطموح المتنبى والتركيب المتفرد لشخصيته، ومدى تفاعلها مع البيئة فى كل أبعادها وقد استخدم لهذا (منهجه التاريخى والإنسانى). ومن ثم فإن منهجه يقوم على الجمع بين قوتين، الأولى: وتمثل الحياة الإنسانية العامة بأنشطتها المختلفة، والثانية: وتمثل الإنتاج الأدبى بخصوصياته الفنية، والبلاغية، وكلتا القوتين تؤثر فى الأخرى تأثيراً تاريخيـــاً، ونسانياً، ومن القـــوتين وتلاقيهما تتضح حقيقة الشخصية الأدبية (الإنسانية، والفنية). والملاحظ بصفة عامة عند «العقاد» و «طه حسين» هو العناية والاهتمام بالأدب، وبكونه مفتاحاً للشخصية، وتفسيراً لها، وأن الأعماق السحيقة من نفسية الأديب مخزن لكل ما يحركه، وينعكس على أخلاقه، وسلوكه الأدبى والاجتماعى، ووظيفة دارس الأدب أن يتعمق المشاعر الإنسانية ويربط ما بينها وبين ما تنتجه الشخصية من آداب، ويجد لها تفسيراً فيما تبدعه الشخصية حتى ولو كان مستعداً لتقديم تبريرات وحيثيات عند «العقاد»، أو تسعفه الأنشطة الإنسانية للشخصية عند «طه حسين».

---

(١) د. محمد حسين هيكل: تراجم مصرية وغربية، ص ٢٦١ – القاهرة سنة ١٩٢٩.
(٢) د. طه حسين: مع المتنبى، دار المعارف، ص ٢٥.

إذن فنحن أمام منهجين يؤثر أحدهما فى الآخر ، وفى الأفق الأبعد، والأوسع فنحن أمام نظرية إنجليزية محافظة، ويمثلها « العقاد » الذى تأثر بهزلت الإنجليزى. والأديب الإنجليزى أكثر محافظة وشخصيته جادة وأدبه بالتالى ملتزم ، وخاضع لقوانين المجتمع المحافظ ، ولقواعد الاتجاهات الأدبية المحافظة ، وكل دارس للشخصية الإنجليزية وأدبها محتاج لمثل هذا المنهج الذى يعتد بالتحليل النفسى وبكل المعلومات التى يتوصل بها إلى أعماق تلك الشخصية المحافظة ، ومن هنا كان اهتمام العقاد بالتحليل النفسى منهجاً وأداة موصلة للكشف عن خبايا النفس ، وتفسير العقد السلوكية الشخصية هذا وإن كان الأستاذ « عمر الدسوقى » فى كتابه « الأدب الحديث ـ الجزء الثانى » ينكر على العقاد اتباعه لمنهج معين ، ويرى أن هزلت مثله كان « مالا إلى الهدم ولم يتبع منهجاً واضحاً محدداً »(١) .

ونحن ـ أيضاً ـ أمام نظرية فرنسية ، ويمثلها « طه حسين » والشخصية الفرنسية مرحة ، ومعترفة ، وليست لها مشكلاتها النفسية البعيدة عن المجتمع الفرنسى وأحاسيسه وبالتالى فالأدب الفرنسى لا يحتاج إلى التحليل النفسى وصولا إلى معرفة الخبايا ، وإلى تفسير العقد الحبيسة داخل الشخصية وتتبدى فى سلوكها ، بل إن الدارس للأدب وشخصياته محتاج كما ذهب « سانت بيف » و « تين » إلى عوامل مساعدة متمثلة فى البيئة والجنس والعصر ، ومن هنا كان اهتمام « طه حسين » بهذا المنهج متأثراً فيه بمن أثروا فيه من المفكرين ، والأدباء الفرنسيين .

والمنهج الذى ينبغى أن تدرس فى إطاره شخصية شاعرة كتلك الشخصية التى نحن بسبب دراستها ، وتقديمها لأول مرة للقارىء العربى والمتذوق الأدبى ، ودارس الأدب الحديث ـ هو المنهج التكاملى الذى يعمل على

---

(١) عمر الدسوقى ، فى الأدب الحديث ، ص ٢١٥ ، مج ٢ .

تجميع كل الجزئيات ، والمتناثرات ليشكل منها إضافة تتكامل بها ، وبغيرها صورة الشخصية فى ذهن القارىء وعندما يتناولها الدارس ، بشرط أن لا تكون نقاط الدراسة قد ضحى ببعضها فى سبيل الأخرى ، وألا تطغى الحياة الشخصية على الحياة الاجتماعية ، وألا تقلل تلكم الحيوات من وضوح الصورة الفنية ، والحياة الوجدانية التى عاشتها الشخصية ، وجلاء ما تحتفظ به تلك الصورة الفنية من خصائص ونزعات .

فنحن لا نتصور شخصية أدبية تصوراً كاملا إلا إذا كانت سيرة الأديب مفتاحاً لفهم الصورة العامة للشخصية ، وأدبها ولا ننكر ما للحياة الخاصة والسلوك العام ، والمقومات الشخصية وطبيعة الشخصية ، ونوعيتها ومرضها ، وصحتها ، وكل ما يتصل بها من ظروف ، وملابسات — من أثر على الأدب ، والفن ، بل والعلم بمجالاته النظرية ، والمعملية والتسويقية ، ثم إن الفن بعامة ، والأدب بخاصة عمل وجدانى متصل أوثق الاتصال بنوعيات خاصة من البشر ، وهذه النوعيات نتاج لظروفها ، وجزء كبير من إبداعاتها متأثرة فيه بتلك الظروف وما هذه النوعيات سوى الصورة المركزة والمثلى لمـــا عليه المجتمع الإنسانى من صفات ، والإنسانية ليست مجموعة أفراد المجتمع وإنما تظهر الإنسانية ظهوراً عظيماً فى بعض أفراد المجتمع ، ومن هنا فإن الدراسة ستوقفنا على خصائص ، ومميزات تضاف للجهود التى تبذل فى سبيل الوصول إلى وضوح إنسانى وحضور لخصائص إنسانيـــة تتيح فرصاً حيوية أمام دارس « الأنثروبولوجيا » مستفيدين أيضاً من كل الدراسات المتصلة بالنص الأدبى سواء لدى الشكليين ، أو البنائيين واللغويين ، والجماليين ، حتى يمكن لنا أن نتصور وحدة شاملة للعمل الفنى ، ومبدعه الإنسانى أو القدرة الفنية ، والاقتدار المبدع وإذا حققنا درجة من القرب تجاه هذه الوحدة الشاملة المرموقة فى ضمير المستقبل ، أمكن لنا أن نتسلح بإرهاصات مؤسسة

على حقائق — هى بعض أساليب المنهج العلمى الذى صبغ كل الدراسات الاجتماعية والعلمية ، ونسعى لتحقيقه فى ميـــدان الدراسات الأدبية — نحكم بها على الفنانين ، والأدباء ، وهم فى أهم أطوار حياتهم الفنية الأولى ، حينئذ يمكن التلفت إليهم ، وإحاطتهم بالرعاية النقدية ، والتأكد من مستقبلهم الواعد .

وشاعرنا تحتم علينا ظروفه أن نتلمس كل شىء من أجل اكتمال صورته الشخصية ، والأدبية ، لأن كلتا الصورتين قد تعاونت وتجاوبت ، — وتمازجت ، وانفعلت أو تفاعلت لتمنح الصورة الشاملة التوحد ، وقوة التأثير ، وتألق نوازع الصدق الفنى ، والنفسى فهو شاعر أخلص لشاعريته ، وإقطاعى تمرد على طبقته لكن بأسلوبه الانسانى ، وشخصية اجتماعية لكن اغترابه النفسى وشح تلك الشخصية بالأسى ، والأحزان النبيلة و« عاشق » و « معشوق » : عاشق للجمال الذى — مازالت المرأة رمزا له ومعشوق وذلك كما تصوره المخيلة الشعبية ، وما يختزنه الوجدان الشعبى لصور من أبرزها عشق « الجنية » له ذلك العشق الذى أودى به كما تردد الحكاية الشعبية حتى الآن .

وهو أخيراً زوج كأخلص ما يكون الأزواج ، وأب لطفلته «نادية» التى أطلت عليه يوم رحيله ، فودعها بابتسامة تتألق فيها رغبة الحياة ضد حتمية الموت وكأنه قد بعث من جديد فى فتاته حياة ظافرة وفى شعره رسالة نبيلة .

مثل هذه الشخصية العامرة بكل ما تزخر به الإنسانية من حب وحياة، وأمل ، ورغبات ، وبكل ما تحياه من مجتمع ، وقيم وعادات ، وتقاليد ، تحتم علينا أن نتناولها فى صورتها ووجودها ، وفنها وأن نفى لكل مايتصل بها من أبعاد زمنها ، وبيئتها ، ومجتمعها وأن يكون ولاؤنا أكثر للعمل الفنى نفسه .

(أ) المكان وبيئاته : —

يرجع تاريخ أسرة شهاب الدين ببلقاس إلى حوالى ثلاثمائة ستين ، وكان رأس هذه الأسرة ، وهو المرحوم « شهاب الدين محمد نوفل عمر» معاصرا « لمحمد على » وأسرته إحدى الأسر التى شاركت فى تكوين مجتمع مصرى مدين لأفرادها بما حققه من بعث وإحياء والمتتبع لتكون هذه الأسر بالريف المصرى والمدن الكبيرة ، يرى أنها مزيج من عناصر : مصرية ، وتركية ، ومملوكية ، وجراكسة ، تجمعها فى النهاية إطار مصرى ، وروح إسلامى ، وانتماء عربى ، وقد تشكلت من هـــذه الأسر « الأرستقراطية المصرية » التى قادت الحركة الحضارية لفترات طالت حتى صيغ مجتمع مصرى متماسك فى عاداته ، وتقاليده ، ونظامه الاجتماعى والسياسى ، على أنها فى النهاية لم تكن سوى رافد أمد تيارات الحياة المصرية برجالات فى ميادين نهضتها ، وتقدمها . ومعظم أفرادها إن لم يكن غالبهم كان لهم ميل إلى العلم ، وتوقير العلماء ، وفى أغلبهم تمسك بالدين ، وتعظيم أهـــله . .

وقد رأوا أن الدين ، والعلم يقربهم إلى الله والناس حتى يغفر لهم بعض نقائصهم ، وما يلقاه الناس منهم — أحيانا — من ظلم وتشدد وحرص على الإنتاج ، والتزام العمل ، والاخلاص فيه فامتلأت بيوت ، وقصور هذه الأسر بالكتب الدينية النفيسة ، وشجعوا على اقتنائها وحافظوا على العربية ، وتبارى أبناؤهم فى حفظ أشعارها ، وتذوق آدابها ، وتأنقوا فى بيوتهم ، فأشاعوا جمالا وفنا تشكيليا أساسه الخط العربى ، والزخرفة الإسلامية ، وأسرة « شهاب الدين » ضمن أسر « أرستقراطية » ، و « متوسطة » أضاءت جوانب الحياة فى « بلقاس » ونواحيها ، واهتموا بالأرض بل عشقوها ، ومن ثم كانت أراضيهم الزراعية « بمثابة مراكز أبحاث ، وخبرات فلاحية ،

ومعين لا ينضب من الإنتاج والخيرات وبفضل موالاتهم هم وأمثالهم من « الملاك الكبار » و « المتوسطين » أصبحت الأرض الوطن الحقيقى لكل فلاح ينزرع فيها ، ولا يفكر فى الهجـــرة عنها مهما كانت المغريات ، والغايات وفى ظل وجودهم الاجتماعى نمت وازدهرت صلات اجتماعية واتسع الزمن لمزيد من الرفاهية ، والرخاء والأمسيات الثقافية والدينية حتى أصبح لكل مناسبة طعمها ومذاقها ، ولكل مهنة إبداعها وروادها ، فانتعشت بهم الحياة المصرية بعامة والريفية بخاصة ، وعبق المكان بأريج تاريخى ضمخوا به الوجود الاجتماعى ومن ثم خلعوا على الأشياء صورا تفيض بالسحر ، والجمال ، والجلال ، وكونوا بهذا جوا مصرياً يمنح الحواس أجواءها : فللعين مفاتنها وللأذن شجوها ، وللأنف أريجه وللفم ذوقه وللبد ملمسها فكان لنا بحق وجود مميز عبر مراحل تواجد هذه الأسر بيننا . وإذا كانت التطورات الأخيرة التى ظهرت بمصر عقب حركة الجيش المباركة سنة ١٩٥٢ قد شوهت عن غير قصد صورة هذه الأسر فى أذهان جيل ما بعد الخمسينيات بفعل الاعلام ، ووسائله المختلفة ، فنحن مطالبون حضاريا ، وتاريخيا بتصحيح هذه الصورة ، وتفسير النظام الذى مثلوه فى ميدان « الأرض » « والفكر » و « الثقافة » لأن طبقتهم والنظام الأسرى والعائلى الذى عرفوا به لم يكن عقيما ، أو خطرا هدد حياتنا الاجتماعية ، بل كانوا ينابيع ثرة بالمعرفة ، والرقى بل إن كثرة من الموهوبين والعباقرة فى ميادين الحياة المختلفة ينتمون إلى هذه الأسر .

وقد عرفت « بلقاس » ، ونواحيها عددا من هذه « العائلات » التى عشقت الأرض ، وتعبدت فى محراب فلاحتها ، والعمل بها حتى أضحت الأرض بسببهم معطاءة لا تبخل ، والخير بفضل خططهم الزراعية يهر من يستمع إليه من أبنائنا .

ونحن مدعوون للأسهام بدور مخلص يوضح بالدراسة التاريخية والمقارنة دور هؤلاء ، ونظامهم الاجتماعى والعائلى فى حياتنا الاقتصادية والاجتماعية والفكرية ، وأهمية النظام العائلى لمصر باعتبارها قديما ، وحديثا موطن الأسرة ، ومهبط القيم ، وميدان الاقتصاد الزراعى . ومن عمد هذه الأسر رجل من رجالات إقليم الغربية الذى تتبعه « بلقاس » وقتئذ هو : (محمد باشا أحمد) والد شاعرنا وكان عالماً فاضلا ، ومن خيرة من درسوا فى الأزهر الشريف حينما كان يستقبل أبناء السراة ، والأسر المحافظة ولهذا كان له دور عظيم وإيجابى فى حياة الأمة آنذاك ولعلمائه تأثير أى تأثير على مجريات الأمور ، ومن ثم كان للعلم تجلته فى النفوس ، ومنزلته فى القلوب .

ويعود هذا — أيضاً — إلى طلابه الذين كان معظمهم ينتمى إلى التشكيل الاجتماعى الممتاز ، وإلى الطبقة الاجتماعية القادرة ، والمؤثرة وبالتالى المتحررة من أى سيطرة ، والتى لاتخضع إلا لله الذى تعمل فى سبيل إعلاء كلمته ومن هنا يستحيل على أمثال هؤلاء أن يكون دينهم وعلمهم ، وروحانيتهم فى خدمة أى حاكم مهما كان . وأملنا كبير إن نعود بالأزهر إلى أيامه الأولى فيختار طلابه من الوعاء الاجتماعى القادر ، ونعيد إليه رسالته حفاظاً على الدين واللغة ، وشخصية الداعى إلى ربه بالحكمة ، والموعظة الحسنة وقد عرف والد الشاعر بأنه أديب محب للأدب ، والأدباء وسع الاطلاع ملم إلماماً كبيراً ببعض العلوم المختلفة من فقه ، وحديث ونحو ، وصرف بحكم دراسته الأزهرية ، ثم إن سفره إلى « أوربا » للتزود بمختلف العلوم ، والتعرف على تلك البلاد مما دعم ثقافته تلك وبهذا اشتهر فى إقليم الغربية ، ونواحى بلقاس بعقله وحكمته ورزانته ، وصبره ، وأناته ، وقدرته على حل المشكلات التى تتصل بحياة مجتمعه ذاك سياسيا ، واجتماعيا ، واقتصاديا ، حتى أصبح لسانهم ، ونائبهم ، والمسئول السياسى عنهم وكان حبه للأرض ، وعشقه لها ، وولهه بها ،

وحرصه على استصلاحها وتنمية مواردها ، وتعمق أسرارها ، واعتصار إمكاناتها لا يعدله شئ سوى حياته ، وكل أبنائه ، فهو فلاح كأخلص ما يكون الفلاح المصرى ، وراع للماشية ، ومستثمر كأبرع ما يكون الراعى ، والمستثمر وهو فى النهاية واحد من الناس يعيش كما يعيشون ، ويذهب كما يذهبون وفائض إنتاجه وهو كثير ، وغزير يعود إلى الناس خيراً وفيرا وفائضاً معروضا ، وهكذا سعدت به الأرض ، والوطن ، والناس كما سعدوا بأمثاله ، بل إن حياة كبار الملاك فى مصر كانت معظمها مجندة فى سبيل التنمية والاستثمار الغذائى ، وقد أدوا دورا رائعاً للاقتصاد والحياة ولا يقلل من هذا الدور ما عرف عن بعضهم من جشع وظلم ، وهو جشع وظلم يتوارى ضآلة بجانب مشرف بسيط لبعض الجمعيات التعاونية هذه الأيام .

وهكذا كانت مصر تعيش فى عقول أبنائها الموسرين وبين أحضان النظام الأسرى بكل مقوماته . وفى ليلة فضية ربيعية يلفها ضوء القمر ، وتغمرها الطبيعة السمحة من سنة ١٩٠٢ تنبعث بين نواحى « القصر » أول صرخة مع إطلالة أول طفل فتتجاوب صيحات ميلاده ، مع إيقاع النهر الرابض أسفل « القصر» ليتألف منهما صوت الشعر ، وليكون « النهر » ملجأ الشاعر ، وملتقى تأملاته ، وموطن عشيقاته . ويمر الوقت ، وتتابع خطى الزمن ، وتتشابك الأيام ، والسنون لتصطنع الديمومة الزمنية ، وتشكل للطفل عالمه ، ويتلفت حواليه فيبهره ما يرى ، ويأخذ العالم الخارجى يتسرب إلى عقله ، ووجدانه ليتحول صوراً مثالية تفيض بالسحر ، والروئى ، والخيالات ، وتنبض بالحق ، والعدل ، والخير ، والحب ، وروعة الإنسانية ، وجمال الإنسان . يرسل عينيه إلى هنالك حيث الريف يمنح الجمال ، والجلال والطبيعة العامة ، والمتحركة تبسط سحرها ، وتنتشر صفحات الكون الفسيح . والإنسان يروح ، ويجئ بحدوه الأمل ، ويموت فيه الألم والكل فى رحاب الله متوازن ، متناغم ،

يكثر الفقراء ، ويقل الأغنياء تعظم النفوس ، وتعمر القلوب ، ويحلو كل شئ فى الحلوق ، وتغنى الأرواح ، وتجهد الأجسام، والكل يعمل، ويعرق ، ويدعو موقنا بالإجابة ، ويصلى فى خشوع مؤمنا برب هذا الكون والجميع يطعم ، ولا أحد يبيت جائعا ، وجاره شبعان ، وهنا ينعدم معنى الفقر مع كثرة الفقراء ، ويتنوع الغنى مع قلة الأغنياء ويتصف كل شئ بالعطاء ويأخذ الطفل فى تاختزان هذه الصور وبالذات صورة شيئين اثنين أثارا فيه أحاسيس متباينة وظل آثرهما قوياً حتى آخر حياته وهما : « القصر » و « النهر » أما « القصر» فمنزله، ومقامه ، وملك لوالده، نهض فى شموخ ، وسموق فى مكان عامر بالأمن ، والإيمان ، سابح فى بحر من الصمت الذى يرافق الأشياء ، ويقف على رأس « قنطرة » يعبر عليها الغادون إلى حقولهم ، والرائحون إلى بيوتهم ويتجمع فوقها « عمال التراحيل » و « أنفار الدودة » ليتم توزيعهم قبل بزوغ الشمس إلى أماكن عملهم ، ويطل على هذا التجمع « القصر» شاهداً على عظمة الفن المملوكى ، واليد المصرية الصناعة التى أعطت للفن المعمارى المصرى شعاعاً من طيبة ، وخطوطاً من روما وروحاً من الشرق وحياة ، وحيوية من الفن الإسلامى بتموجاته ،وقبابه ، وقداساته وارتعاشات الضوء فى الداخل، وانسياب أشعة الشمس من الخارج لتتجمع عندئذ صورة التوازن الفنى بين التراث والمعاصرة وتتخلله « مصر» على مر التاريخ حيث اللوحات تمثلها شرقا أخضر يعبق فيه البخور ، وتزينه الطنافس ؛ والتماثيل التى نحتها الفنان من روح الريف ، وأقيمت فى الأبهاء، والطرقات لتمثل الحب والحزن والفرح ، والعمل رمزاً لروعة الطبيعة الريفية ، أو تلك اللوحات التى ترى فيها « مصر » تسجد للصلاة فى وقار ، وخشوع ، ومع ذلك « فالقصر » بداخله تلمح فى منحنياته طبيعة ، وروح مجتمع الطبقة الوسطى ، وتلمس فيه جو البيت المصرى بألوانه ، وعناصر تجميله ، كما تلمح مذاقاً مصرياً من خلال بعض اللوحات حيث تبدو الفاكهة الشعبية ، والأوانى ذات الزخارف المصرية، والإسلامية فى غلالات من النور .

أما « النهر » فالطفل مشدود إليه ،وبالذات عندما تنسدل سدل الظلام الكثيفة ، ويطبق الليل بظلمته على الكون، فيتحول إلى عالم مسحور تحيط به الظلمة ، وتدب فيه الحركة متموجة ، ويخلو المكان من كل الأصوات إلا صوت الهدير ، وارتماء الأمواج الوانية على صفحة الشاطىء ، وصوت غريب قادم من هنالك من الأعماق المظامة يناديه، ويحبب إليه عالم النهر ، والاقتراب من أسراره، وأعماقه حينئذ يحس الطفل بانتمائه إلى عالم روحى ، لا يتبين معالمه وحدوده إلا عندما يخلو إلى النوم ، أو عندما يهجع الناس حينئذ يشعر الطفل بميلاد عالمه ، ومولد رفاقه ، وصحوة زمنه السحرى اللامحدود، ويطل السحر الدفين حين تتغنى على القرب السواقى والشواديف ، وتترنم الحياة فى الحديقة المحيطة ، والأشجار المتناثرة الممتدة عبر مساحات الخضرة اليانعة ، وبين الحين ، والحين ينساب نغم أرغول فى صحبة كامات موال حزين ، بينما تدب صيحات « الذكر » ودقات « الزار » معلنة عن مجتمع يحاول الاقتراب من الله لكن بأسلوبه وعلى طريقته الشعبية والمصرية.

(ب) الزمان وأبعاده : ويتجاوز « الطفل » سنى الطفولة إلى الحداثة ، فيعهده والده إلى مرب يتولى تنشئته تنشئة تراثية ، أساسها حفظ شىء من القرآن الكريم ، وكتابته ، وتجويده ، والقراءة فى عيون الشعر العربى ودراسة الأمثال ، والحكم وأدب على بن أبى طالب فى كتاب : « نهج البلاغة » هذا المربى هو الشيخ « محمود البيلى اليشبيشى » شاعر مطبوع وعالم لغوى مدقق ، ومحدث لبق ، وذاكرة واعية لشعر عربى على مر العصور ومستودع لحكم هائل من التراث العربى ممثلا فى أيام العرب وحكمها ، وأمثالها ، ومجالس الأدباء ، والنقاد .

فكان للشيخ بسبب الموسوعة العربية المتنقلة التى يحملها بين جنبيه ، وفى عقله ، تأثير أى تأثير على « شاعرنا » حتى توثقت صلة روحية ، وصداقة عميقة بينهما ، وفجرت فى « الشاعر » ينابيع الماضى بقيمه الفنية

وعذوبته ، ونقاء لفظه وظلت هذه الينابيع تروى « شعره الرومانسى » بالروح العربى الأصيل .

كان هذا الأسلوب التربوى ، والتعليمى تتوسله « الأسر المحافظة » لتكوين أبنائهم خلال مرحلة التهيئة الأولى حفاظاً منها على التخليق العلمى ، والثقافى ، والتربوى لهم من ناحية وتعويد الأجيال المتح من وعاء الثقافة العربية وإكسابهم قدرات ، ومهارات تذوقية ، وكتابية من ناحية أخرى وكانت الأسر تتسابق فى هذا وتعقد المجالس « بالمضايف » و « المنادر » ليتبارى الأبناء فى حفظ القرآن كله ، أو بعضه وتفسير بعض آيه ، وإنشاد الشعر مع تذوق لبعض أبياته واستعادة لأيام العرب ، ويتم هذا بمحضر من رجال ينتسبون إلى الأزهر تخرجا ، أو طلابا ، أو أساتذة يقومون بدور المحكمين وقد عرف الشاعر بتفوقه فى هذه الميادين وذلك بفضل ما عرف عنه من حب للتراث ، وإجادة حفظه ، وتناوله بالفهم والشرح ، وميله المبكر إلى اللغة العربية ، وآدابها . كل هذا وسنه الصغيرة لم تتجاوز العاشرة ، يضاف إلى هذا غرامه بالموسيقى ومحاولاته ، وهو صغير الضرب على العود وإعادة ألحان الأصوات الموسيقية العربية القديمة ، وذلك على أيدى بعض الموسيقيين الإقليميين الذين كان لهم دور فى حياة « أم كلثوم » الفنية قبل أن تنتقل إلى القاهرة من « المنصورة » وعلى رأسهم الشيخ « أبو الفتوح الشرقاوى » .

وبعد أن اجتاز مراحل « التهيئة الأولى » ودرج عقله من مهده ودبت فيه حيوية العلم ، ومخايل القدرات الخاصة ، أصبح قادراً على الاستيعاب ، والتحصيل ، عندئذ التحق بالمدرسة (الناصرية الإبتدائية) سنة ١٩١٤ فى القاهرة ، وفيها نما عقله نموا ذكيا لفت إليه أنظار مدرسيه ، وإعجاب زملائه ، وبجانب إجادته للغة العربية ، وشغفه بآدابها ، أتقن اللغة الفرنسية خلال فترة تلمذته بالمدرسة الإبتدائية » بفضل أستاذه « حليم نقولا » الذى

رأى فيه شاعرية مبكرة ورأى معها أن تكون الفرنسية نافذة يطل منها على الأدب الفرنسى ليتأثر بصوره ، واختلاجاته الفنية وفى « الناصرية » أنشأ مجلة « الغدير » لينشر هو وزملاؤه على صفحاتها أرق أشعار الغزل العفيف ، وأحلى أبياته قديما ، وحديثا وكون جماعة «أصدقاء الشعر العربى» ومهمتها تتلخص فى الصوت المعبر والكلمات الشعرية الجميلة ، وأحيانا صوت العود يرافق الإنشاد الشعرى .

والمقصود هو تدريب الأصوات المميزة على إلقاء الشعر العربى مصاحبا لأنغام العود التى تنساب خفيفة دافئة فيتكون لدى الحاضرين ذوق مكتسب ، وتذوق فنى للشعر ، وتجاوب مع إيقاعه ، ثم أخذت رجلاه تجوبان به شوارع القاهرة ليحط على فنن من أفنانها المتناثرة مرة فى قهوة « سبلندر » ليلقى بعض أدباء الشام ، وشعراء لبنان وأحيانا « خليل مطران » أو فى « جروبى » حيث يلتقى « بأحمد شوقى » فيشجعه ، ويبشره بمستقبل شعرى رحب ، ويتعهد شعره بالصقل ويعجب أكثر ببساطة هذا الشعر وملامح العذرية والعفة البادية من تعبيراته وتتوثق صلته الفنية بشوقى وذلك لما بين أسرتيهما من صداقة وتعارف ولما بين الشاعر وبين على ابن الشاعر شوقى من صداقة حميمة وتنتهى دراسته فى « الناصرية » فائزاً بالشهادة الإبتدائية ، ويكون فيها الأول على زملائه سنة ١٩١٨ ، ثم يلتحق بمدرسة « الفرير » بالظاهر فتتوثق علاقته بالمحافل ، والجمعيات الأدبية ، ويجيد « الفرنسية » مع « الإنجليزية » إجادة تمكنه من الاطلاع على أدب اللغتين ، ثم يقضى بها المرحلة الثانوية ، وينال شهادة إتمام الدراسة الثانوية قسم أول « الكفاءة » فى ذى الحجة سنة ١٣٣٩هـ الموافق أغسطس سنة ١٩٢١ فشهادة إتمام الدراسة الثانوية قسم ثانى أدبى (البكالوريا) فى ذى القعدة سنة ١٣٤١ ، الموافق يونيو سنة ١٩٢٣ وفى القسمين كان ضمن العشرة الأوائل .

ثم انتقل إلى التعليم الجامعى ليلتحق بمدرسة الحقوق الملكية وينال إجازة الحقوق فى العلوم القانونية فى ذى الحجة سنة ١٣٤٥ هـ الموافق يونيو سنة ١٩٢٧ ، وبهذا تحقق حلمه ، وتجسدت أمانيه ليكون واحداً

ممن يقفون بجانب الحق ، والخير ، والعدل ، وهى كلمات عاشت صوراً فى خياله ، و يود تحقيقها فى ميدان مجتمعه ثم يعود ليقيم حيث مقامه بين النهر و « القصر » وفى سنة ١٩٣٢ يسافر إلى « باريس» وهنالك كماقال فى إحدى رسائله : « التقيت بالحرية المطلقة فى كل ناحية ، ولدى كل لسان : « باريز» متحررة ، ولسان مجتمعها فضولى ، والأشياء عارية تلمسها بسهولة ، ووضوح ، وقد عشقت الحرية الفرنسية فى الفن ، والأدب ، وصراحة الفرنسى ووضوحه وكرهتها فى المرأة ، والمجتمع ، وفضلت عليها تقاليد بلادنا ، وعادات مجتمعنا » أو قوله لأحد المقربين إليه : قابلت كثيراً من الشعراء ، والأدباء وسمعت شعرهم ، وأدبهم ، وأسمعتهم بعضاً من شعرى فانبهروا — للقدرة على الإيقاع والأبحر ، والتنوع الشىء الذى يعده الفرنسى إعجازاً له ... »

فالشاعر قد ذهب إلى « باريس » فبهرته لكنها لم تنسه تقاليده وعاداته وأكدت له باعترافات شعرائها القيمة الموسيقية العالية والتنوع النغمى ، والفنى الذى يتميز به الشعر العربى . والغنائية التى تكشف عن الروح الإنسانى ، وتكشف عن الأعماق وعما دفناه فيها من أحزان لكنه أكتسب خبرة ، وثقافة قانونية وذلك عن طريق الدراسة الحرة المتاحة بسهولة هنالك ... ومع هذا كله فقد بر م بالحياة فى « باريس» لأن الحدود متداخلة : — والرغبة فى التعبير عن الذات تتحقق دون التفات إلى ، عوامل أخرى ، والوجود الانسانى يتواجد خارج إطار المجتمع الإنسانى والبدايات الوجودية تشق طريقها ، وتسمح للقلق ، والاضطراب أن يتسلل إلى الذات الفردية ، والكيان الاجتماعى ، والضجيج والضوء الساطع والزحام الكثيف ، وقلة الخضرة ، وكثرة الأبنية واستعمال القطر ذهاباً وإياباً ، كل هذا لم يصادف هوى فى نفس شاعرنا كما أفضى بهذا إلى أستاذه ، وصديقه فى إحدى رسائله (١) وقد ملأه

---

(١) رسالة كتبها لأستاذه ، وصديقه فى ١٧ من أبريل سنة ١٩٣٢ .

الحنين إلى بلده ، وريفه حيث ينعم بالهدوء ، وجمال الطبيعة ، وتغريد أطيارها وهو ما يتفق ، وطبيعة شخصيته ، ويتجاوب مع ميله الفطرى إلى الهدوء ، والريف ، وعاد إلى بلده وموطن رأسه ليبدأ رسالته مع الحق ، وضد الباطل ، فيعمل بالمحاماه ، ولا يطمح إلى منصب ، أو جاه ، لأنه فى منصب ، وجاه من قلبه ، ووجدانه ، ومتحصن بمملكه الشعر ، وتموقعه فيها ، كما أنه لم يقبض مليما واحداً نظير أتعابه ، بل كان يفرض على نفسه أسلوبا مثاليا فيجعل من نفسه مدافعا وجنديا فى ميدان يتصارع فيه الباطل والحق ، وبغض النظر عن صاحب القضية ، وهو لم يكن يقبل قضية فيها شبهة بجانب الباطل حتى أصبح صاحب لقب محامى «الفقراء» و «المظلومين» وفى تلك الأيام التى عاشها شاعرنا محاميا كان التقاضى بين غنى ، وفقير و « ظالم « و مظلوم » و « قوى » ، وضعيف » ، ونادرا ماتكون الخصومة بين « فقيرين » ، أو « ضعيفين » ، لأن تطورات « الحقوق » والملكيات « لم تصل إلى حد الخصومات التى وصلت إليها الآن ، ومن هنا يتضح دور المحامى ، ومدى تمسكه بالحق ، وكيف تجلب عليه مواقف نوعية مثل تلك من الحساسيات الاجتماعية ، والعائلية لكن « فؤاد شهاب الدين » قد تمكن بدفء مشاعره ، وصدق عواطفه وحبه للناس جميعا من إذابة هذه الحساسيات ، والوصول بالصراع الطبقى إلى شاطىء السلام متوسلا بالمصالحة ، وبالأساليب السلمية والعرفية غارما فى كل مراحل تلك الوسائل غانما ثقة القوى وحب الضعيف منتقلا بالقضايا ، والخصومات من مبنى المحاكم إلى « البيوت » و « المضايف و « المنادر » وفى قصره كثيراً . وهكذا نجح فى تجميع قلوب الناس حوله .

لقد استطاع بقلب الشاعر وعقل القانونى أن يمنح مجتمعه الإنسانى المتناقض اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا معنى الحياة ومصيرها ومعنى الوجود والخلود ، والحس الفنى والروحى لكل ما يحيط بهم . ولما كان مؤمنا بالحب ويتعاطاه على أنه شىء ضرورى ومهم من هنا كان دوره فى مساعدة الفقراء والبسطاء ،

والأغنياء والكبار سواء بسواء ، لأن الإنسان عنده أهم شكل وأجمل مظهر ، وأقوى دلالة لوجود الحياة ، وأهميتها ، ثم إن دراساته — كما قال لأحد أصدقائه المقربين — فى القانون والفلسفة والاجتماع لن تعطه إجابة دقيقة عن معنى الحياة لذلك كان الشعر والحب ، والفن عنده من أجمل المعانى ، والقوى الروحية التى تحفز الإنسان على التخلى عن المشكلات اليومية والحياتية بأحقادها وأنانيتها ، والعمل من أجل ذلك على تكامل شخصيته وإنسانيته وذلك بالحب والفن والشعر وهذه كانت أهم رسالته فى مجتمعه . وفى فيض من المشاعر الإنسانية الهادرة ، وزحمة من الأحاسيس المتدفقة وعناق صادق ملهوف يجمع قلوب الناس ، وقلب الشاعر تنبت شجيرة خضراء داخل القلب ، يرويها الوجدان ، وتسقيها الروح ، ويغذوها الشعر . ويكون الحب ، والشوق ، والحنين والعذاب ، والاغتراب أعز ثمارها ، وأجمل عطائها ، ولا يبوح الشاعر بشىء عن تلك التى تيمت فؤاده ، واستولت على كيانه فأحالته إلى بلبل حزين يغنى ، ويشدو ، ويظل حبيس « القصر » وجليس « النهر » ونزيل الريف ، متخففا من العلاقات الاجتماعية ومعايشا أحلامه ، وخيالات أحبابه ، ومعشوقاته ، ويتساءل الناس جميعا ، ماسر هذا الحزن الذى يعتصر قلب الشاعر ، وكيانه ؟ وتكون الإجابة هذا الشعر الذى لم يسمعوه من شعرائهم الإقليميين يشدهم بقوة انفعالاته ، وصدق عواطفه وإيقاعه الموسيقى الذى يهز ، ويأسر ، فيحفظونه ويرددونه حتى الأطفال ، والشيوخ والنسوة تردد الشعر وتحكى للصغار « الحكايات » و « الحواديت » حول الشاعر ، وعلاقاته الغرامية مع كائنات من عالم آخر .

ويموت عمه « يوسف بك أحمد » فتثقله الأحزان ، وينمزق ألما للفراق ، فقد كان يحب عمه حبا ملك عليه ، قلبه ، ومشاعره ، ويقول فيه أول قصيدة رثاء حيث لم يقل شعرا أبدا فى مناسبات الموت والرحيل بل لم يقل قصيدة واحدة طيلة حياته الفنية خارج إطار الحب ، والهيام ،

والشوق ، والحرمان ، فلم يمدح ، ولم يفخر أو يهنئ ، أو يشارك فى مناسبات عامة ، أو خاصة ويعيش بعد رحيل عمه فى حزن مقيم لا يخفف منه سوى عودة والده من استشفائه بأوربا ليرعى الصغيرين ، « عبدالقادر » و « أحمد » ابنى عمه .

١ — رحيله :

وتمر الأيام لتبدأ فرحة الحب تطل من جديد ، وتشرق النفس بتحقيق أمل اللقاء بمن يحب فيتزوج « ابنة عمه » ويسعد معه جميع من سعد به شاعراً عاشقاً ، ومحبا فاقداً للمحبوب ، وشاباً راغباً فى الحياة ورجلا ملهوفاً على الأبناء ، لكن أيام الهناء معدودة ، فالزمن بطىء ، والمرض يغرس أنيابه فى الشباب ، والعلة تطل من بين جوانحه ، فيحطمه المرض ، وتفتك به العلة ، ويظل لسانه يردد أجمل الأشعار ، ووجدانه يفيض بأبدع التصاوير ، وأقوى الرؤى ، والخيالات ، وتبدأ رحلة الرحيل مرة أخرى بعد موت « عمه » فيموت « أبوه » فى ٩ من فبراير ١٩٣٧ ، ويعجز الفؤاد عن الرثاء . ويقدر على البوح بحبه الدفين ، ثم تولد « نادية » ابنته لتكون رمزاً لعطاء الحب ، وموطنا للآمال وما يكاد يلمح بسمة طفلته الجذلى حتى يحس بالفقدان الحقيقى وبالزمن وكل أبعاده يفر هاربا من بين يديه ، فيلجأ إلى زوجته الحبيبة وبين يديها يسكب آخر أشعاره ، وهى وحدها التى تعرف كم يكابد ويعانى ، ويتوجع ، ومع الأنين المكبوت الذى يشبه الصمت يقول :

هذى جروحى من دام ومندمل ما أضيع المرء بين اليأس والأمل

فالشاعر المشرف على الموت . المطل على النهاية ، الظافر بصك الرحيل الأبدى يعرف كيف يتغلغل الحب عميقاً فى لفائف قلبه ، ويحس به ويصوره كما لو كان يحمل عواطف المحبين جميعاً وتتضح صورة الموت عنيفة عنيدة بقدر ما تشرق قوية معطاءة لهفة الحب والشوق إلى الحبيب

وهنا تتبلور حقيقة معاناة الحب وكله شوق للحياة فلا يظفر إلا بالموت والفقدان والرحيل ، ويحاول أن يصارع متشبثاً بالحياة فتغلبه حقيقة الوجود فيبكى قائلا :

إنى أموت ولست أرغب فى الدنا ما دام قلبك صدنى وجفانى

لكن الحياة فى أعماقه تنتصر ولو لدقائق ، فتشرق البسمة فى وجهه وتطل الفرحة من عينيه . ويقبل ابنته قبلة محب فرح بانتصار الحب فى شخص طفلته . وما إن تطل الحياة من أعماقه مدة دقائق حتى توفى النهاية فتساقط نفسه قطعا قطعا ، ويلفظ أنفاسه الأخيرة فى ٩ من مايو سنة ١٩٣٧ بعد ميلاد ابنته بتسعة أيام ووفاة والده بثلاثة شهور .

يرحل فؤاد «شاعر الشوق ، والحرمان ، والحب العذرى العفيف تاركاً زوجة مخلصة ، وطفلة ما أسعدها لو أينعت فى دفء الأبوة ، وحزمتين ، الأولى : بعض رسائله ، والثانية : بعض أشعاره ثم ألسنه كثيرة تحفظ شعراً كثيراً وترددة وتتغنى به ، وقلوباً عامرة بحبه . وشفاها تنسج الأساطير حول شخصه الأثيرى وإنسانيته الملائكية ، وبشريته النورانية ، وعن حوريات الجنة اللاتى استقبلته مغردات ، فرحات وجنيات النهر الرابض تحت « القصر » حيث زف مرة أخرى على أجمل الجميلات ، وأميرة الأنهار والبحار فى موكب تصطف على جانبيه بنات الجنان ، وملائكة الرحمن وهن يعزفن أرق الألحان ، ويغنين بعضا من شعره «

أأموت قبل تمتعى بلقاك يامن رضاى موكل برضاك

٢ — ما بعد الرحيل :

يرحل شاعرنا ، بعد أن أدى رسالة نبيلة نحو مجتمعه ، وقومه حيث كان الحب فى نظرهم قرين الفسق ، والفجور ، فأصبح بعد تجربة

الشاعر ، وشعره، صورة للنقاء ،والطهر ، والعفاف وقرين الحس المرهف، والوجدان الحي ، وبفضل أشعاره ارتقت نفوس الشباب ، وصفت روحه وتجملت لغته ، وحل الحب مكان الحق واستطاع كثيرون تذوق الجمال والانفعال ، والتعاطف مع مواقف نبيلة، وقيم شجاعة ، واتسعت مجـالات المعنويات ، وتحسس الجميع مصادر الخير ، وينابيع الحق ، والفضائل فأثروها ، وعمقوها بقدر الإمكان ، وأثروا حياتهم ، وسلوكهم بالحق ، والفضيلة ؛ لأن موته كان صدمة للجميع فالتف الكل حول ذكراه وفاء ، ورجاء وحول شعره تذوقا واستعادة. لكن واحداً من هؤلاء كان أكثرهم حباً ووفاء له ،ولناهو ابن عمه « عبد القادر يوسف الأستاذ المستشار حالياً ، وهو يمثل البقايا المخلصة للآباء والأجداد حيث توفر —فور وفاة الشاعر— على جمع تراثه الشعرى والنثرى قدر ما سمحت به الظروف ، بسبب موقف الشاعر من النشر ، ورفضه نشر الشعر ، وإذاعته بين الناس كتابة فجمعه من الرسائل الخاصة ، ومن أفراه عشاقه، ومحبيه ، وأصدقائه ومن الأوراق التى كان يحتفظ بها الشاعر ، ثم نشره فى كتيب صغير وقد صدر تكريماً لذكراه ، وتخليداً لأسمه ، لكن شعراً كثيراً قدضاع مما جعلنى أتتبعه فى مواطنه ،ومظانه حتى حصلت على بعض منه ثم ضممته إلى السابق فأصبح وفيراً ، ويعطى صورة عامة عن فنه الشعرى ، ولنا أن نعود إلى التعبير بكان عن جوانب من حياة « الشاعر » فما أجمل أن يكون حديث الذكرى عن فنان كانت حياته حافلة بالصدق والفضائل ، والاخلاص لفنه والحب لمجتمعه ، والتعالى والكبرياء اللذين يضعان الفنان فوق المتالب ، والسلبيات ويجعلانه فى موقع العطاء دائماً ليصبح الفنان بهما نبيلا ، وكريما ، ودمثا وخالقا ، ومبدعا ، وأصيلا وكان شاعرنا كل هذا ، ويكفى أن أدلل على خلقه ، وطبيعة شخصيته— فوق ما دللت بهذه الرسالة الصادرة منه إلى أستاذه الذى تعهده وهو فى الخامسة من عمره ، وشهد ميلاد نبوغه الشعرى ، وهو ابن الثامنة

يقول له فى لون جميل من التواضع ، والاعتراف « أنا عاتب على كتابتك لى « سيدى » فأرجوك ألا تكتبها مرة ثانية لأنى أعتبرك أستاذى ودع عنك الرتب ، والألقاب فإن المرء بعلمه ، وأدبه ، لا بماله ونسبه »(١) .

وفى رسالة أخرى يزين رسالته إليه بهذين البيتين :

تذكر رأيا محمود أنك كنت لى ... إلى الخير خير المرشدين وأكبر
فمهما بلغت المجد فالمجد مجدكم ... ولسنا على ذى الفضل للفضل ننكر

وفى أخرى بتاريخ ١٥ من يناير سنة ١٩١٩

نعم الحبيب ونعم الخل محمود ... فأنت والله فى الأحشاء موجود
وأنت فخرى إذا ما كنت مفتخراً ... وأنت عندى على الإحسان محمود

فاعترافه بالفضل لأستاذ طفولته ، هو بمثابة اعتراف بحق الفطرة والأصالة ، والالتزام ، ثم إنه دليل يرشدنا إلى أعماق تلك النفس وعلى أى شئ تنطوى ، وأن طبيعتها هو الانتماء إلى الينابيع الأولى عالم البراءة ، والطهارة ، والحنين إلى كل ما هو أصيل ، ومعطاء .

إن حياة شاعرنا القصيرة كانت كلها ينبوعا للحب بجناحيه الألم والحزن ، وفى رحلة الحياة القصيرة التى قطعها الشاعر : « فؤاد » سنتعرف على شاعر صادق أصيل تنداح كل أشعاره فى إطار واحد : الحب . وهو إزاء أصالته وصدقه عاش معذبا لم يدخل الأمل إلى قلبه ، ولم تستدفئ بالوصال جوانحه . وكيف يدخل الأمل قلباً أفعم حزناً ؟ وتستدفئ الحنايا بطعم الوصال ، والفقدان يملأ جوانب حياته . . ؟

لذلك فنحن سنكون أمام شاعر حزين ، وشعر موشح بالأسى ، والآلام ، والصد والهجران ينطلق هذا الشعر من ذات شاعرة محبة دونما زيف أو تصنع . . ثم إن هذه البداية المبكرة لتجديد مضامين

---

(١) رسالة بتاريخ ٢٤ من نوفمبر سنة ١٩٢٨ والشاعر عنده ستة عشر عاماً وتلميذاً فى المدرسة الابتدائية .

الشعر الإقليمى ، توضح لنا – أيضاً – الثقافة و التنوع ، والأصالة التى طلع علينا بها شاعرنا . فلقد كان تجديده للشعر الإقليمى مضموناً وشكلاً بكل ما يحمل التجديد من انطلاق وتمرد على مألوف الشعر الإقليمى الخاضع للمناسبة ، والقابع بين أحضان التقليدية المبالغة ، وذلك دون الخروج عن قواعد الشعر العربى و أصوله وموسيقاه . ورنته وجرسه . على الرغم من أن موضوعات الشاعر كلها كانت تدور حول موضوع واحد، وفى فلك متقارب وفكرة متحدة ألا وهو الحب .